

الإسقاط النفسي والسياسي في كتاب "البخلاء" للجاحظ



د. فاطمة الزهراء عبد الغفار الموافي (*)

مدخل

يُعَدُّ كتاب البخلاء للجاحظ واحداً من الكتب الطريفة في موروثنا الفكري والإبداعي الإنساني ؛ ذلك لأنه يتناول موضوعاً ذا طبيعة إنسانية خالصة ، يوثق الكاتب من خلاله كثيراً من معالم الفترة الزمنية التي عاشها ، مع تركيز على بينتي بغداد والبصرة بشكل خاص ، ذلك في جانب ، أما في الجانب الآخر فإن الجاحظ يضع المتلقي أمام بعض من ملامح الحياة السياسية والاجتماعية التي عاش في كنفها ، ومن ثم فهو يحاول قراءة هذا الواقع برميته قراءة ذات صلة بدوافع وضع الكتاب ، والهدف من وضعه - أيضاً - .

إنَّ الفترة التي عاشها الجاحظ كانت فترة قلق سياسي واجتماعي ، وكان أن اشتدَّت فكرة الشعبوية في مواجهة التأكيد على عروبة الدولة ، وفي ظلِّ هذا الصراع السياسي ، الذي بدا ظاهراً في بعض جوانبه ، وخفياً في جوانب أخرى ، كان الدافع لوضع الكتاب ذا صلة ببعد سياسي استهدفه الجاحظ ، وإن كنت أرى أنَّ الدافع النفسي لوضعه ذو صلة مباشرة بالدافع السياسي - المشار إليه - إذ إنَّ الخلل الاجتماعي ، وما ينجم عنه من سلوكيات وممارسات غير

(*) أستاذ مشارك - كلية الإمامة - الرياض

مقبولة على الصعيد الاجتماعي أو الأخلاقي أو غير ذلك في أي عصر وفي أي مكان ، إنما يولد ردة فعل إحساسية أو رؤيوية نفسية مباشرة تدفع لفضح تلك الممارسات والسلوكيات ؛ لتضع لبنة رفضها - في جانب - وبناء كيان اجتماعي ونفسي متوازن للإنسان والمجتمع على أساسه - في جانب آخر - وهذا حسبما أرى ما حاوله الجاحظ ، ونجح فيه إلى حد كبير ، من خلال وضع كتابه " البخلاء " .

الجاحظ وكتاب البخلاء

لعل الجاحظ أن يكون من شخصيات تراثنا اللغوي والفكري والأدبي ، الذين حازوا على مكانة ودالة عظيمة في قلوب القراء والباحثين ، بل كان واحداً ممن استحوذوا على اهتمام كثير من الدارسين والنقاد في عصور الأدب والنقد العربي المتتابة ، فكانت كتبه على تنوع موضوعاتها مجال نقاش وحوار وتحليل ودرس نقدي ، يؤكد على هوية الرجل وإبداعه ، ويضعه ونتاجه في مرتبة تستحق التقدير .

وشخصية الجاحظ تُعدّ نموذجاً إنسانياً فريداً ، من حيث العلاقة بين التركيبية النفسية والتركيبية الخلقية ، فهو دميم الخلقة قبيحها ، وقد رُويت حكايات طريفة عن هذا الجانب ، في حين كان فكها خفيف الظل ، وكان الجانب الثاني ردة فعل نفسية وطبيعية للجانب الأول ، وقد انعكست تلك التركيبية الخاصة في شخصيته على نتاجه الإبداعي كله .

عن شخصية الجاحظ ، وسماتها الخاصة يقول أحد الباحثين :

" كان الجاحظ قصير القامة ، دميم الوجه ، يُضرب المثل ببشاعته ، لكنّه كان خفيف الروح ، ظريف النكتة ، يتهافت الناس على الاستمتاع بنوادره" (١).

وفي السياق نفسه ، يقول آخر :

" لقد توارى الجاحظ القبيح الصورة ، البذيء الهيئة ، الذي كانت الأعين تفتحه لقبحه وبذذاته ، خلف الجاحظ الذكي ، الظريف الرائع الحجة ، الفصيح اللسان ، تمتدُّ إليه الأبصار ، وتُصغي إليه الأسماع ؛ لقوة عارضته ، وروعة لهجته " (٢) .

شكل الجاحظ ملامح مدرسة في النثر الفني ، تتلمذ عليها كثيرون في الأجيال التالية ، وكان له تأثير كبير في الأوساط الأدبية والنقدية ، على مساحة تاريخنا العربي ، الأدبي والنقدي ، ولعله يكون من الكتاب العرب القلة الذين زخرت مكتبتنا الفكرية والأدبية بنتائجهم ، وكان أن خضعت حيواتهم وإبداعاتهم للدرس النقدي والتحليل .

حول هذا الجانب ، يقول أحد الباحثين ، مشيراً إلى دور الجاحظ وعمق تأثيره الأدبي والثقافي :

" له آثار في مختلف فروع الثقافة ما بين كُتُب ورسائل ، أكثر من ثلاثمائة وخمسين كتاباً ، ضاعت كلها إلا القليل النادر ، ولم يبق منها إلا عثة رسائل ، تتلمذت عليه وما زالت منبعاً خالداً من منابع الثقافة العربية ، ومصدراً أصيلاً من مصادرها ، وما زالت - كذلك - موسوعة علمية كبيرة عن عصر الجاحظ وحضارته المزدهرة في ظلّ الخلافة العباسية " (٣) .

إنّ التنوع في نتائج الجاحظ كانت سبيله لأن يتبوأ مكانته في عالم الإبداع ، ذلك جانب ، أمّا الجانب الأكثر أهمية ؛ فقد كان في تلك الرؤية الدقيقة والعميقة ، واللغة المعبرة ، والمستهدفات الإنسانية الشمولية التي ضمّنها كتاباته ، ممّا كان - في مجمله - عاملاً مهماً ورئيساً لأن يرسم خارطة لواقع الحياة برمته ، وأن يقدّم وثيقة واقعية شاملة عن الحياة والناس ، ممّا يُعدّ قاعدة مهمة لقراءة كثير من أوجه الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية لعصر بكامله .

يتحدث صاحب "مروج الذهب" عن مدى تأثير كتابات الجاحظ ،
فيقول:

" وكُتِبَ الجاحظ تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ؛ لأنه
نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل
لفظ" (٤) .

وحول جانب من هذا التأثير لكتابه يقول باحث آخر :

" إن كُتِبَ أغزر مصدر لدارسي الحياة الاجتماعية في عصره " (٥) .

وينوه الدكتور شوقي ضيف بذلك - أيضاً - فيقول :

" من المؤكد أن العربية لم تعرف كاتباً فرض نفسه على عصره
والعصور التالية ، كما عرفت الجاحظ الذي ملأ الدنيا ، وشغل الناس بملكاته
النادرة " (٦) .

أمّا كتاب البخلاء ؛ فهو ذو طبيعة خاصة ، سواء أكان ذلك من حيث
موضوعه ، أم كان ذلك بما تضمنه من قصص وحكايات عن البخلاء ،
وبخاصة بخلاء البصرة ، مجتمع الجاحظ ، وهو ما يكمن في داخله كثير من
أوجه الحياة والواقع المعيش ، وعلى مستويات الحياة المختلفة ، ولعلّ هذا ما
أكسب الكتاب سمعته ، ومكانته عند الدارسين والنقاد . يقول أحد الباحثين عن
أهمية الكتاب ومكانته الخاصة في دنيا الأدب والفكر العربي ، وطريقة الجاحظ
في وضعه :

" والجاحظ لم يكتف في نقد البخلاء بنظرة عابرة ، بل وقف كتاباً كاملاً
من أشهر كتبه ، وأوفرها انسجاماً ، فجمع أخبارهم ، وأظهر حركاتهم ، وحلّل
انفعالاتهم ، وفصح خفاياهم ، وكشف نفسياتهم ، فإذا بها أمامنا كتابٌ
مفتوح" (٧) .

في حين يشير الدكتور " شوقي ضيف " إلى منهجه في الكتاب ، القائم على تضمينه ثقاً من هزل ودعابة وسخرية ، لما في ذلك من تأثير وجداني على قرّائه. يقول في ذلك :

" وخصّ الهزل والنوادر بكتابه المشهور " البخلاء " ، وهو مجموعة كبيرة من الأقاصيص الفكهة عن الأشخاء البخلاء في عصره " (٨) .

الإسقاط مفهوماً ودلالة

تشكل فكرة الإسقاط مجالاً رحباً لتحرك كثير من الأدباء ، كتاباً وشعراء، والمفكرين وغيرهم ، بغية التعبير بحرية عما يعايشونه من أحداث ، وما يختمر في بواطنهم من مشاعر وإحساسات ورؤى ، قد لا تجد الأجواء المعاشية ، مهياة لانطلاقها والتعبير عنها . إنّ كثيراً من حالات الإحباط النفسية والاجتماعية التي قد يحسّها الإنسان الفرد ، وبخاصة الأديب أو المبدع ، بما جُلبت عليه نفسه من رقة المشاعر وإنسانية الرؤى لديه ، قد تدفع بهذا الأديب للتعبير بطرائق غير مباشرة عن طموحاته وآماله وآلامه كذلك ، تجلباً لما قد يواجهه من تعسف أو قهر أو ظلم .

إنّ كثيراً من نماذج الأدب ، على المستويين العربي والعالمي ، قد تضمّنت بعض حالات الإسقاط التي نقرأ من خلالها رسائل أو توجيهات أو مفاهيم حول قضايا إنسانية ، تبدو ضمن سياقات تلك الأعمال بشكل ضمني ، غير معلن . إنّ مثل هذه القراءات غير المباشرة للمضامين الفكرية أو الإنسانية داخل عمل أدبي هي بمثابة شكل من أشكال الإسقاط الخفي ، الذي يستهدفه الأديب ، بغية إحداث ردّة فعل ، أو استجابة محدّدة من قبل المتلقّي .

إنّ فكرة التضمين التي يستخلص منها المتلقّي إسقاطاً ما في أيّ عمل إبداعي ، إنّما هي وسيلة تعبيرية ذات علاقة بجانبين اثنين ، أولهما هو الجانب اللغوي ، حيث استخدام اللغة والعبارة القادرة على إيصال المعنى المستهدف

والفكرة المعنية إلى المتلقي من أكثر الطرق تأثيراً فيه ، وثانيهما متعلق بالجانب النفسي لهذه اللغة، حيث يبتئ الأديب عباراته وألفاظه دلالة الفكرة ورموزها المستهدفة ، وكلما كان المبدع قادراً على توحيد هذين الجانبين بقدرة إبداعية وبلاغية وتعبيرية عميقة، كان أقدر على إيصال رسالته المبتغاة ، وهنا يحدث الإسقاط الذي يبتغيه المبدع ، بحسب قناعاته ورؤاه الذاتية .

كثيرة هي أوجه الحياة الاجتماعية والسياسية - بشكل خاص - وفي وقتنا الراهن بالتحديد ، التي يتحرك في إطارها المبدعون ، ليستخلصوا منها مادة ثرة ليبلغوا رسائل محدّدة للمتلقين عبر قنوات الإسقاط ، ولم يكن العصر العبّاسي مختلفاً في أوجه كثيرة عن واقعنا المعاصر . لقد لعبت طبيعة المجتمع العبّاسي ، بخصوصيته ، دورها في إحداث كثير من أوجه التغيير في المجتمع، وكسبه هوية مغايرة ومختلفة إلى حدّ كبير . إنّه مجتمع يترجم صورة لاختلاط الأجناس ، والثقافات ، والاحتكاك الاجتماعي والفكري ، وما نجم عن هذا كله من تأثير المجتمعات القادمة ، على صعيد العادات والتقاليد والمفاهيم ، وما حدث - أيضاً - من تنوع في اللغات ، وتأثير متبادل في كل ما يتعلق بجوانب الحياة المعيشة ، على تعدّد أشكالها ومستوياتها ، ممّا كان له كبير أثر على رجال الفكر والأدب في ذلك العصر ، إذ كانوا هم - على الحقيقة - لسان الحال الواقع برمّته ، أو لنقل عند نخبة منهم بشكل خاص ، والجاحظ كان - بلا شك - واحداً من هؤلاء .

ولو نظرنا إلى دوافع وضع كتاب البخلاء ؛ نجد أنّ كثيراً ممّن تناولوه بالدرس والتحليل ، ذهبوا إلى أنّه استهدف جانبيين اثنين أساسيين ، لهما علاقة مباشرة ببُعْد الإسقاط ، الذي نحن بصددّه في هذا البحث ، الأوّل منهما متعلق بالتأكيد على هويته الذاتية ، وأعني بذلك محاولة الجاحظ إثبات قدراته ، وإمكاناته الخاصة على الصعيد الإبداعي ، والبرهنة على أنّه قادر على تلامس ما لا يمكن لأخرين تلمّسه أو رصدّه ، على المنوال ذاته ، وضمن حدود

القدرات والطاقة الإبداعية ذاتها ، أمّا الثاني منهما ؛ فهو متعلّق برصد ملامح دقيقة من الواقع الحيّاتي ، بعمق نظرة ، وشمولية رؤية ، وإتقان لغة ، وبلاغة أسلوب ، وسهولة طرح . أحد الباحثين يقول في هذا الصدد :

" كان الجاحظ أخذ التّأليف صناعة له ، يُنرّزُ بها نفسه ، ويُظهر فيها مواهبه ، ويظهرُ كتاب البخلاء واحداً من تلك المؤلّفات ، ويُطلّ فيه الكاتب على عصره ومجتمعه ، فيُعطي خواطره ، ونوادره ، ودفعاً من أفكاره وآرائه ، ويشاء بذلك أن يكون شاهد بينته " (٩) .

ويؤكّد باحث آخر هذا الجانب ، فيما يتعلّق بأسباب وضع الكتاب ، فيقول :

" ويستوي كتاب " البخلاء " ، وقد حوى جوانب مهمّة من أخلاق عصر الكاتب ومجتمعه ، وخاصّة البخل ، وما اتّصل به أو تعارض معه ، ويكون للجاحظ فيه مجالٌ خصبٌ في الضحك والإضحاك ، والتهكّم والسخرية ، والدرس والتحليل ، إذا هو كتابٌ قد وضعه الكاتب لنفسه ومجتمعه ، فتلك هي حقيقة وضعه " (١٠) .

في توضيح آخر يتعلّق بأسباب وضع الكتاب ، يقول أحد الباحثين :

" إنّه ألفه بناءً على رغبة قارئ أعجبَ بأحد كتبه ، في تصنيف حيل لصوص النهار ، وفي تفصيل حيل سرّاق الليل ، وقد طلب منه أن يستزيده في ذكر نوادر البخلاء واحتجاج الأشيخاء " (١١) .

وبرغم ما نحن بصدد درسه وتحليله حول مفهوم الإسقاط على وجهيه ، السياسي والنفسي عند الجاحظ ، إلا أنّني أرى أن وضع الكتاب كان المستهدف الأساس منه هو تقديم وثيقة مجتمعية متكاملة – قدر الإمكان – يمكن أن يقرأ المتلقّي في بواطنها كثيراً من الدلالات والرموز الإسقاطية التي استهدفها الجاحظ بشكل غير مباشر .

الإسقاط النفسي

لم يكن الجاحظ عنصراً فريداً في سماته الشخصية من حيث قبح منظره أو دمامة خلقته فحسب ، وقدرته الفذة على الإبداع المتميز في حقل أو حقول معرفية متعددة ، وما كان لهذا كله من تأثير نفسي عليه ، وتشكيل أنماط من التفكير والرؤى والسلوكيات المرتبطة بهذا التأثير وتداعياته على نفسه ؛ فكثيرة هي النماذج التي يزخر بها تراثنا الإنساني ، في الشرق والغرب على السواء ، حيث أبدع كثير من الكتاب والشعراء والمفكرين ، على امتداد خارطة هذا التراث الثرّ نتاجات شكّلت منعطفات فكرية وإبداعية حقيقية في مسيرة التطور والنماء البشري ، حتى مع أولئك النفر من المبدعين الذين كانوا يعيشون حالات نفسية أشبه بالحالات المرضية – أيضاً – فقد كان نتاج هؤلاء محلّ تقدير نقدي وخضعت للدرس التحليلي كذلك ، وليس بعيداً عن 'ذاكرة تراثنا العربي سيرة بشار في الأدب العربي القديم والدكتور طه حسين في الأدب العربي الحديث ، وملتون في الأدب الإنجليزي وألبرتو مورافيا في الأدب الإيطالي ، وغير هؤلاء ممّن قرأ في كلّ عصر سيرهم ونتاجهم الإبداعي .

تشكّل شخصية الجاحظ ملامح نموذج يبعث على الغرابة والإعجاب في أن معاً؛ فهو شخص دميمة الخلقة ، قبيح المنظر ، جاحظ العينين ، وهي صفات تركت – من غير شك – أثرها الشديد والعميق في نفسه ، وكان لها كبير أثر في نفسيته ونظراته للواقع والآخرين من حوله ، بل كان لهذا أثره المباشر في تشكيل منهجه الفكري وطرائق تعامله مع الآخرين . إنّ أثر حالته الخلقية على تركيبته النفسية كان أقرب إلى تأسيس حالة شبه مرضية ، وكان من الطبيعي أن يجسد حالة من حالات التحدي للنفس أولاً ، ومن ثمّ إثبات الوجود والهوية الفكرية والإبداعية ، باعتبار هذا ردّة فعل إيجابية لتلك الحالة المشار إليها ثانياً.

يترجم الكتاب - إذن - وجهاً من وجوه التحدي النفسي عند الجاحظ ، في مواجهة مَنْ حوله ، ويبرهن على قدراته الفنية في إبداع شيء قد يعجز الآخرون عن تحقيقه ، ذلك جانب ، أما الجانب الآخر المتعلق بالجانب النفسي ، ويمثل وجهاً آخر من وجوه الإسقاط في الكتاب ؛ فهو متعلق باهتمام الجاحظ بشكل غير مباشر ، وعبر قنوات الإسقاط أيضاً ، بتصوير نفسيات البخلاء في زمانه ، وبخاصة بخلاء بغداد ومرو والبصرة - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - وقد عبّر عن هذا المعنى في سياق اندهاشه لتمسك البخلاء ببخلهم ، على الرغم من معرفتهم بما ينعكس - بفعله - على واقعهم وحياتهم من مشكلات ومتاعب . في هذا السياق يقول الجاحظ في كتابه ، مشيراً للبخل وفعله المشين :

" وكيف وهو يجمع له بين الكذِّ وقلة الميرفق ، وبين السهر وخشونة المضجع ، وبين طول الاغتراب وطول قلة الانتفاع ، ومع علمه بأن وارثه أعدى له من عدوه ، وأنه أحقُّ بماله من وليه " (١٢) .

ونراه يعمّق من هذه الرؤية التي ترصد ملامح الواقع النفسي لشخص البخلاء ، وهي الشخص المحورية في الكتاب ، التي نستخلص من قراءتنا لأبعادها فكرة الإسقاط التي نطرحها هنا ، يقول في جزء تالي من كتابه ، محلاً بعض جوانب من شخصيات البخلاء وطبيعتهم ، فيقول :

" وليس عجبني ممّن خلع عذاره في البخل ، وأبدى صفحته للذمّ ، ولم يرضَ من القول إلا بمقارعة الخصم ، ولا من الاحتجاج إلا بما رُسِمَ في الكُتُب ، ولا عجبني من مغلوب على عقله ، مُسَخَّر لإظهار عيبه ، كعجبني ممّن قد فطن لبخله وعرف إفراط شُحّه ، وهو في ذلك يُجاهد نفسه ، ويغالب طبعه " (١٣) .

لعلّ هناك جانباً مهماً - حسبما أرى - له صلة مباشرة بفكرة الإسقاط النفسي ، وهو متعلق بالجانب الاجتماعي ، فهو - في نظري - نتيجة حتمية

له ، أو لنقل إن أحدهما إفراز للآخر ، فالحالة الاجتماعية الصاخبة ، التي تعاني خلا في التوازن الاجتماعي ، ممّا يمس واقع حياة الفرد ، ومفاهيمه وقناعاته ، وبما يمس - كذلك - قيم المجتمع وعاداته وتقاليده ، إنّما قد تؤدي بالضرورة والحتمية إلى إحداث خلل في البنية النفسية للناس ، أو لفئة عريضة منهم ؛ ذلك لما قد تسببه تلك الحالة المتوترة وغير المتوازنة اجتماعياً ، وما يعانيه الفرد من جراء ذلك من حالات الضياع والتخبط الاجتماعي ، وغياب العدل والتسامح والمساواة ، وغير هذه من القيم السامية ، فتكون من نتائج ذلك معاناة كثير من أفراد المجتمع على الصعيد النفسي ، ومواجهة حالات من التحدي النفسي الجديدة .

إنّ المجتمع العباسي ، بخصوصية تركيبته الاجتماعية والثقافية والفكرية ، التي نوّنها بها من قبل ، كانت عاملاً مساعداً وقوياً لإحداث هذه الحالة الصاخبة ، التي دفعت كثيراً من المبدعين للتعبير عن ذواتهم وحيواتهم الخاصة والعامة ضمن حدود قناعاتهم التي يؤثرون إفرازها للمتلقّي ، وكان الجاحظ من هؤلاء ، معتمداً على فكرة الإسقاط النفسي الاجتماعي هنا ، لإبراز الوجه القبيح لعادة البخل ، وما يرتبط بها من سلوكيات وممارسات غير مقبولة على الأصعدة الاجتماعية والأخلاقية؛ ذلك لينقل للمتلقّي رسالة مهمة فحوها ضرورة التنبّه لهذا الجانب المقيت ، وتعزيز نقيضه وتأكيد في المجتمع ، أي مجتمع ، الذي ينبغي صلاحاً في تركيبة الواقع والإنسان على حدّ سواء .

في ثنايا كتابه نلاحظ أنّ الجاحظ يقف - بنكاء - عند ما يُيسّر على المتلقّي قراءة رسالته إليه ، ولنقرأ هذا الجزء من كتابه ، الذي يُظهر فيه بعض ملامح الكرم والعطاء ، باعتباره شكلاً من أشكال الإسقاط النفسي - أيضاً - لإظهار النقيض المستهدف ، وأعني ظاهرة البخل ، إذ يقول :

" لم أرَ الديك في بلدةٍ إلا وهو لا يقطّ ، يأخذ الحبة بمنقاره ، ثمّ يلفظها فدام الدجاجة ، إلا بيكة مَرُو ، فإني رأيتُ بيكة مَرُو تُسَلِّب الدجاج ما في مناقيرها

من الحبِّ ! قال : فعلمتُ أنْ بخلهم شيءٌ في طبع البلادِ ، وفي جواهر الماء ، فمنْ ثمَّ عمَّ جميعَ حيواتهم " (١٤) .

يرتبط بهذا البعد النفسي في عملية الإسقاط النفسي والاجتماعي عند الجاحظ جانب مهم ، ذو علاقة بأسلوب المعالجة وطريقة الطرح في كتابه ، وأركّز هنا على ثلاثة جوانب رئيسة وأساسية عند الجاحظ ، وهي ذات صلة مباشرة بإحداث المستهدف من الإسقاط النفسي والاجتماعي - المشار إليه مسبقاً - وهي الجانب اللغوي والجانب البلاغي وجانب السخرية ؛ ذلك لأنَّ لغة الجاحظ في كتاب البخلاء ، واعتماده على أساليب التعبير البلاغية ، كما كان في بقية كتبه ورسائله - معظمها - إضافة إلى سخريته المرأة ، هي أقرب إلى البساطة في التعبير ، والسهولة في اللفظ ، واليسر في التناول والمعالجة ، في جانب ، واعتماده أساليب البلاغة من بيان وبيدع ومعان ، في جانب آخر ؛ وتحقيقاً للأثر النفسي والاجتماعي المقصود من فكرة الإسقاط هنا ، في جانب أخير ؛ فهو في الأول منها يعمد إلى انتقاء ألفاظه السهلة من واقع الحياة التي يعيشها ، إضافة إلى حرصه الشديد على الاعتماد على تراكيب لغوية سهلة غير مغرقة في التعقيد اللغوي والصياغة ، إدراكاً منه أنه يوجّه كتابه إلى أكبر فئة من القراء والمتلقين ، ومثل هذه اللغة لا بدّ أن تتّصف بالبعد الجماهيري في التعبير ، وأعني أن مثل هذه اللغة الجماهيرية التي تستهدف قاعدة كبيرة من الناس هي بحاجة إلى تعابير أكثر بساطة وسهولة في إيصال المستهدف .

وفي الثاني منها يعمد الجاحظ إلى عنصر التصوير البلاغي ، المعتمد على تشبيهات واستعارات ، هي أقرب إلى المباشرة والعمق في أن معاً ، وتبدو عناصر البيان والبيدع عنده ذات سمتين اثنتين ، الأولى أنها مطابقة لمضامين البلاغة العربية وأركان البيان والبيدع والأساليب والمعاني فيها ، والثانية أنها متجاوبة ومتساوقة مع البيئة والواقع والفنات التي يعبر عنها ، ويعالج قضايا الإنسان فيها ، وبخاصة فئة البخلاء في مجتمعه .

وفي الثالث من هذه الأوجه يعمد الجاحظ في كتابه كله على عنصر السخرية والإضحاك ، وقد شغل هذا الجانب كثيراً من الباحثين ، ذلك بالتركيز على ما اتسمت به شخصية الجاحظ نفسه ، ومن ثم ما اتصفت به شخصيات بخلائه ، من خفة ظل ، ساعدته في الكشف عن مكنون نفسيته هو أولاً ، ومن ثم نفسيات شخصيات الكتاب ، فبدت نماذج بشرية باعثة على الضحك والسخرية ، وأحسب أن الجاحظ ضمّن هذه السخرية أيضاً رسالة تخفي في ثناياها كثيراً من أوجه النقد القاسي لتلك النماذج ، بل إن النقد يأخذ مساحة أوسع على الصعيد النقدي والرفض لممارساتهم ، بل لكيفونته ذاتها - كذلك - وبخاصة إذا أدركنا أن تلك الشخصيات - في مجموعها تقريباً - تنتمي لفئة الشعبية التي نقرأ في ممارساتها الفكرية ، والاجتماعية نظرة تعال على العنصر العربي ، مثلما سنلاحظ في أثناء تبياننا لفكرة الإسقاط السياسي في كتاب البخلاء .

إن عصر السخرية - حسبما أرى - قد حقق فكرة الإسقاط النفسي والاجتماعي على محاور عدة ؛ فهو فوق تضمينه جانباً من التفرغ النفسي لما يعتل في باطن الجاحظ نفسه من آلام الإحساس بالقهر النفسي جراء دمامة الخلة ، وما يبعثه ذلك من محاول إثبات الوجود - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - عبر السخرية من الآخر ، الذي يمثل شكلاً من أشكال الصراع بوجهيه الاجتماعي والنفسي ، بل والسياسي - أيضاً - فهو يتضمّن في اعتقادي - كذلك - إسقاطاً مشابهاً على الصعيد المجتمعي ، نشير إليه في حينه ، في معرض حديثنا عن الإسقاط السياسي.

إن عناصر اللغة والبلاغة والسخرية مجتمعة عند الجاحظ تُبرز قدرات الجاحظ في توظيفها من خلال الاعتماد على مثل هذه الألفاظ والتراكيب والأساليب والصيغات ميسورة الفهم ، إلا في النادر منها ، إذ قد يجد المتلقي بعضاً من نقيض ذلك ، سواء في الكلمات المفردة أو في الصيغات ، فجاء

الكتاب في مجمله وثيقة إنشائية بلاغية رانقة رائعة ، تتنوع فيه الأساليب والعبارات ، بحسب الموقف أو الحكاية أو الشخصية ، كما تتنوع أشكال التصوير الفني ، ذلك كله في إطار لغوي متوازن وبديع لا تنقصه السخرية اللاذعة في الأغلب الأعم .

يقول أحد الباحثين ، منوهاً بهذه الجوانب - تحديداً - :

" وهكذا جاء الكتاب مزدوج المادّة ، ملوّن البناء ، حجرٌ من هذه الفصيلة ، وحجرٌ من تلك ؛ ممّا أكسب البناء جمالاً والقارئ متعة وبُعْداً عن الملل ، ولكلٌّ من الفصيلتين خصائصها الأسلوبية ومميّزاتها الإنشائية ، ولكلٌّ منها عِلّة وجودها ووظيفتها التعبيرية ، وإن تقاطعتا في محاور متعدّدة " .
ثمّ يردف قائلاً :

" فقد كانت الفصيلة الأولى بنصوصها الطويلة وأساليبها الإنشائية وجملها المركّبة وإطنابها الملحوظ ... بينما كانت الفصيلة الثانية بأساليبها الخبرية وجملها البسيطة وإيجازها في أحيان كثيرة ، تهدف إلى نقل الحوادث والمشاهد دون محاولة التأثير على المتقبّل " (١٥) .

ضمن هذا الإطار نقرأ نموذجاً من حكايات بخلاء الجاحظ ، استدلالاً على رقة اللغة وبراعة الجاحظ في صياغتها في قوالب أقرب إلى بساطة التعبير والتصوير والبيان . يقول في قصّة العراقي مع المروزي :

" ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشايخنا على وجه الدهر ، وذلك أنّ رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يخج ويئجر ، وينزل على رجلٍ من أهل العراق ، فيكرّمه ويكفيه مزونته . ثمّ كان كثيراً ما يقول لذلك العراقي : ليت أنّي قد رأيْتُك بمرو ، حتّى أكافئك لقديم إحسانك ، وما تجدد لي من البرّ في كلّ مرّة . فلمّا ههنا فقد أغناك الله عليّ .

قال : فعَرَضَت لذلك العراقي حاجة في تلك الناحية ؛ فكان ممّا هوّن عليه مكابدة السفر ، ووحشة الاغتراب ، مكان المروزي هناك . فلمّا قدّم مضى نحوه في ثياب سفره ، وفي عمامته وقلنسوته وكيسانه ، ليحطّ رحله عنده ، كما يصنع الرجل بنقته ، وموضع أنسه .

ثمّ يتابع الجاحظ في إطار من السخرية ذات الدلالة ، التي تُحدث الإسقاط الاجتماعي والنفسي المَنتَنيّ هنا ، وعبر سياق قصصي ، لا تنقصه عناصر البداعة والتشويق ونبض الحدث والفكرة ، إذ يقول :

" فلمّا وجده قاعداً في أصحابه ، أكبّ عليه وعانقه ، فلم يره أثبته ، ولا سأل عنه سؤال مَنْ رآه قط . قال العراقي في نفسه : لعلّ إنكاره إيّاي لمكان القناع ، فرمى القناع ، وابتدأ مُساءلته ، فكان له أنكر . فقال : لعله أن يكون إنّما أتى من قِبل العمامة ، فنزعها ثمّ انتسب ، وجَدّد مُساءلته ، فوجدّه أشدّ ما كان له إنكاراً . قال : فلعله إنّما أتى من قِبل القلنسوة ؛ وعَلِمَ المروزي أنّه لم يبقَ شيءٌ يتعلّق به المتعافِلُ المُتجاهِلُ ، فقال : لو خرجت من جلدك لم أعرفك " (١٦) .

ممّا له صلة بأسلوب السخرية عند الجاحظ يقول أحد الباحثين حوله ، مشيراً إلى أنّ السخرية كانت إحدى مزايا الجاحظ في كثير من كتاباته ، ولعلّ هذا أن يعطينا صورة حقيقية لفكرة الإسقاط التي -- قد يكون ضمّنها -- معظم إبداعاته ، وبخاصة على الصعيدين النفسي والاجتماعي ، يقول الباحث في هذا الصدد :

" إنّ النواذر في البخلاء تكثرُ ، بل إنّ كلّ الكتاب نواذر ، إنّ صحّ هذا التعبير ، وهو يعرض فيه كلّ شخصيات المجتمع الفدّة " (١٧) .

وفي الإطار نفسه يقول آخر :

" وهو لم يُجهِّد نفسه ؛ إذ صوِّر البخلاء في كتابه هذا ؛ لأنه لم يبعثهم من بطون التاريخ ، وقديم الأخبار ، وعتيق الأسفار ، بل جاء بهم من بيئته هو ، واستمدَّهم من خُلصائه وخُلطائه ذوي الظرف والدعابة " (١٨) .

في حين يتحدَّث باحث آخر عن مدى إتقان الجاحظ في رسم ملامح شخصيات البخلاء في كتابه ، وإلى أيِّ حدِّ نجح في إحداث التفاعل النفسي والاجتماعي مع تلك الشخصيات على كره بخلها وسلوكها الاجتماعي في ظلِّه . يقول الباحث بهذا الصدد :

" وقد أضفى الجاحظ على شخصياته خِفة الظلِّ ، وكثيراً من علمه ؛ ممَّا جعلها محبوبة عند الناس " (١٩) .

وضمن هذا الإطار يتحدث المسعودي في مروج الذهب عن سخريته وخِفة ظلِّه ودعاباته فيقول مع ملاحظة تنويهه بانحراف الجاحظ ، قاصداً بذلك محاربته للشعبوية ، وكان المسعودي شعبياً :

" كُتِبَ الجاحظ مع انحرافه المشهور ، تجلَّو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ؛ لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوَّف ملل القارئ وسأمة السامع خرج من جدِّ إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة " (٢٠) .

ويمكن أن نحصر فكرة الإسقاط النفسي الاجتماعي ضمن محورين اثنين رئيسيين، أولهما ما يتصل بواقعه الذاتي ؛ فهو عامل نفسي ذاتي خاص في إطار هذا الإسقاط ، وثانيهما هو ما يتعلَّق بواقع الحياة من حوله ؛ فهو – إنن – عامل مجتمعي عام . على صعيد العامل الأول ؛ أشرنا إلى أنَّه ذات صلة بخُلُقته وسماته وصفاته بشكل عام ، ومواجهته لسخرية الآخرين منه ، بسخرية أكثر مرارة من واقعهم وحياتهم ، وبخل كثير منهم ، وكأنَّه يقوم بعملية تعرية لذوات شخصيات من حوله ، بهدف إثبات الوجود ، وليس بهدف التصادم

المجرد - فحسب - وخلاصة القول في هذا الشأن هو أن الجاحظ أراد التأكيد على أن جوهر الإنسان الفرد هو محك الحكم على شخصيته ، فهو الذي يختزن قدرات الشخص وإمكاناته في الإبداع والخلق الفني والثقافي ، وليس الشكل الخارجي . ولعله بتنوع الثقافات في كتاباته ، وبخاصة في كتابه البخلاء ، أن يكون قد حقق كثيراً من مستهدفاته النفسية والاجتماعية التي استخلصنا إسقاطاته المعنية من خلالها ، والتي قرأنا في باطنها تفوقه الحقيقي على منافسيه ممن عايشهم ، ومنافسيه من اللاحقين أو السابقين عليه ، وهذا بُعد مهم من أبعاد فكرة الإسقاط المشار إليها من قبل .

الإسقاط السياسي

لعل من المعروف أن العصر العباسي هو من العصور التي زخرت بخلط عجيب من الأجناس ، وبمزيج يبعث على الدهشة والغرابة - في أن معاً - فيما يتعلق بالثقافات التي ظهرت في تلك الحقبة ، وكان لها - من غير شك - كبير أثر في بنية المجتمع والإنسان على حد سواء ، سواء فيما يتصل بثقافة المجتمع ومفاهيمه وتوجهاته على صعد الحياة بكاملها ، أو فيما له علاقة بحياة الناس وقناعاتهم وقيمهم ، والمفاهيم المطروحة في إطار همومهم اليومية .

ولما كانت البنية السياسية المستقرة لأمة أو شعب هي المؤثر على استقرار هذه الأمة وتوازنها وأمنها وأمانها ، كان ذلك بوابة الدخول لعالم الإبداع الفكري والثقافي على تعدد أشكاله ومناحيه ، ومن ثم فتح بوابات حرية التعبير والحوار والتفاعل مع الآخر ، والحال يكون على نقيضه في حال اهتزت البنية السياسية في أمة أو شعب ، أو اكتنف حياة الإنسان فيه حيرة سياسية ، يفقد معها هذا الإنسان قدرته على المشاركة السياسية أو إبداء الرأي أو حتى المشاركة في حوارات المشورة والنقاش الفاعل من أجل إحداث تنمية أو تطوير للواقع والحياة والإنسان . وقد يكون الأمر على نقيض ذلك ، فقد

يبرز الإبداع بصورة رائعة ومتفهمة وواعية في ظل واقع القهر والظلم وفقدان الإنسان حريته وضياحه هويته ، وإن بقي هذا استثناء للقاعدة .

إن المجتمع العباسي كان يمثل نموذجاً لصراعات سياسية ومن ثم فكرية وثقافية شديدة ، حيث اختلطت الأجناس المكونة لهذا المجتمع ، بثقافات متباينة ورؤى حياتية ، وقيم ، ومفاهيم وعادات وتقاليد اجتماعية مغايرة – كذلك – أضف إلى هذا ظهور فئات و فرق متعددة ، خلقت جواً ذا بعدين أساسيين ، الأول منهما بُعد مهم من حيث تنشيط الواقع الحياتي وتحريك الساكن فيه ، انعكست نتائجه بشكل إيجابي من خلال إفراسات ثقافية وفكرية لها أهميتها في مخزون الثقافة العربية – من غير شك – وأما البعد الثاني ؛ فقد كان في ذلك التوتر والصخب الحياتي الشرس الذي أحدثته المجادلات والمعارك والصراعات الساخنة على ساحات الحياة بعامه ، وبخاصة على الساحة السياسية ، بشكل خاص ، سواء أكان بوجهها المعلن في المناحرات التي سجلتها كتب التاريخ الموثقة لتلك الحقبة ، أو كان خفياً في بعض أوجهه ، وهذا ما نحاول تناوله هنا تحت مظلة فكرة الإسقاط السياسي عند الجاحظ .

مما يجد ذكره في هذا المقام هو أن الجاحظ كان معتزلياً – كما هو معروف – وكان في هذا تلميذاً للعلاف والنظام (٢١) ، وقد أكسبه هذا قدرة على الحوار والمجادلة والمناظرة ، وقد أشار إلى هذا الجانب الدكتور شوقي ضيف ، في حديثه عن تكوين الجاحظ فكرياً ، بقوله : " وكان لا يُبَارَى في المناظرة وإفحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة " (٢٢) ، كما أن الجاحظ نفسه قد نوّه بقيمة الاعتزال في تكوينه الثقافي والفكري ، إذ يقول بهذا الصدد : " ولولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل " (٢٣) .

بدأت صلة الجاحظ بالواقع السياسي في تلك الأونة من خلال علاقته بالمأمون ، فقد روت سيرة حياته على هذا الصعيد ، أنه كسب دألة عند المأمون ، وحظوة كبيرة ، حتى ذكرت بعض المصادر أن الخليفة كان يصدد توليته ديوان الرسائل في عهده ، وإن كان قد أصبح آنذاك كاتباً رسمياً للدولة العباسية في زمن المأمون. في هذا الشأن يشير باحث إلى بدء تلك العلاقة ، على صعيدها الثقافي والسياسي معاً ، بقوله :

" حتى إذا شغل المأمون بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة بعد رجوعه من مرو إلى بغداد أشار عليه ثمامة ابن أشرس - المعتزلي أيضاً - بأن يطلب إلى الجاحظ الكتابة في هذا الموضوع ، وكتب الجاحظ وأعجب المأمون إعجاباً لا حد له بما كتّب " (٢٤) .

وفي ظلّ حياة الجاحظ مع الحكام والخلفاء والوزراء فيما بعد ، كان أقرب إلى تفهّم كثير من جوانب الحياة السياسية وتلمّس بعض ما يدور في أروقة الحكام والساسة بشكل دقيق ، ممّا ساعده على تكوين رؤية دقيقة وشاملة عن واقع تلك الحياة بتفصيلاتها الدقيقة . فقد توطدت علاقاته بوزير الخليفة المعتصم الكاتب والشاعر المعروف ابن الزيات ، وكذلك الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل الذي شغف به ، وجالسه ، وطلب منه أن يكتب له رسالة يردّها بها على النصاري ، وكانت تلك العلاقات ، على أهميتها الثقافية والفكرية والاجتماعية ، هي ذات أهمية كبرى - حسبما أرى - في تكوين الجاحظ سياسياً بالمقام الأوّل .

إنّ هذا التكوين السياسي ، ومن ثمّ الحياتي العام للجاحظ ، هو ما أفرز كتابات ذات خصوصية ، تضمّنت كثيراً من الإسقاطات التي ننوّه بها في مقامنا هذا ، فمن يطالع كتبه ورسائله يجد - من غير شك - وثائق حياتية مقروءة ببسر وسهولة ، فهو لم يترك جانباً من الحياة ، أو نماذج من البشر ممّن عايشهم أو سمع عنهم ، إلا وضّعت كتاباته ثقفاً من حيواتهم أو طبائعهم أو

أفكارهم أو ميولهم، ولعل ذلك ما دفع بباحثين كثير لأن يقفوا على إبداعاته الأدبية والفكرية ويحللوا مضامينها من هذا المنظور الشمولي الموسوعي .

يقول أحد الدارسين لحياته وأدبه في هذا الصدد :

" وبذلك ينفرد عن أدباء عصره إذ جعل أدبه أدباً واقعياً يصور مجتمعه وكل ما فيه من أخلاق وعادات تتصل بالرجال أو بالنساء والقيان وكيدهن . ودائماً تلقاك طوابعه العقلية من القدرة على الجدل واستنباط البراهين والأدلة ودقائق المعاني والأفكار ، خائضاً بك في أعماق المباحث الكلامية " (٢٥) .

وبرغم أن الكتاب في مجمله هو قصص وحكايات عن البخل والبخلاء ، في ظاهره ، إلا أنه يحوي إسقاطات متعددة ، منها ما هو اجتماعي ، ومنها ما هو ذو طبيعة سياسية ؛ ذلك لأن الجاحظ استهدف فضح كثير من ملامح عادة البخل عند أهل مرو والبصرة وغيرهما ، وبخاصة عند العناصر الفارسية ، التي كانت تنقوّل على العرب والعروبة ، فكان الجاحظ ممن تصدّوا لفكر هؤلاء الذين تحرّكوا تحت مظلة ما كان يُعرّف بالشعوبية ، وهي التي كانت تعني التحيز للعنصر الفارسي ، تمجّده وترفع من شأنه على حساب العنصر العربي ، فهي حركة تؤمن بأنّ العنصر الفارسي هو صاحب الحضارة والثقافة الراقية والمجد ، في حين لا يمثل العنصر العربي - في نظرهم - سوى نقيض ذلك .

إنّ لقد كان هناك صراعٌ خفيّ في المجتمع بين مفهومي العروبة والشعوبية ، وكان الجاحظ يدرك أبعاده وتداعياته ، فجاءت بعض كتاباته ردّاً على فكر الشعوبية ، وبخاصة كتابه البخلاء ، على الرغم ممّا احتواه الكتاب من قصص عن بخل بعض العناصر العربية - أيضاً - كحديثه عن بخل بعض الخلفاء الأمويين والكِندي والأصمعي وغيرهم .

في إطار تناول هذا البعد المهم في كتاب البخلاء ، والمتعلق بدلالات سياسية محدّدة تتصل بالصراع الخفيّ المشار إليه مسبقاً ، يقول أحد الباحثين :
" وشاء أن يبين بأسلوبه التهكمي الليق ، حقارة البخلاء ، وأكثرهم من غير العرب ؛ ليُعظّم شأن هؤلاء من طريق المقارنة بين النقيضين ؛ إذ الضدّ يُظهرُ حسنهُ الضدّ ، كما يقول الشاعر العربي القديم ؛ ففي حملته على الشعوبية كان لا بدّ له أن يمتدح جودّ العرب ، ويُظهر بخل الموالي ، وهل ثمة إهانة ، في نظر العربي ، أقبحُ من البخل " .

ثمّ يردف في جزء لاحق قوله ، مشيراً إلى المستهدف العام من الكتاب ، فيقول :

" ثمّ أيّأ كان غرض الجاحظ في تأليفه فإِنَّهُ ضمّنهُ مغطيات الحاضرة العباسية المفعمّة بالتناقض في مصادرها ومنطلقاتها " (٢٦) .

بل إنّ باحثاً آخر جعل كتاب البخلاء - بجملته - محاولة لتحقيق هذا الهدف بشكل محدّد ، إذ يقول :

" إنّ الذي استدعى الجاحظ لكتابة كتاب البخلاء هو حقّده الشخصي عليهم من جهة - يقصد الموالي - وحملته على الشعوبية من جهة أخرى " (٢٧) .

إنّ القصص والحكايات والنوادر التي يرويها الجاحظ عن بخلاء مرو والبصرة ، في جانب ، وما يرويّه تفصيلاً دقيقاً عن أطعمة العرب ، وشرحه لما كانوا يقدّمونه من أنواع الطعام وأطايب المأكولات وأصنافها المختلفة ، في جانب آخر ، إنّما يمثّل في مضمونه الخفي ردّاً قاسياً وواقعياً على ما كان الشعوبيون يرمون به أبناء العرب آنذاك . وإذا كان الرد الجاحظي قد جاء محصوراً في جانب محدّد ، قد يبدو بسيطاً أو غير ذي فاعلية لتحقيق ما رب الإنسان العربي آنذاك ؛ فإنّ الأمر - حسبما أرى - على نقيض ذلك ، فالكرم والبخل يمثلان وجهين خطيرين تتصارع الرؤى والآراء حول تعزيز جانب

دون آخر في شخصيات الأفراد والأمم من منطلقات المدح أو الذم ، ولسنا بعيدين عن أشعار الشعراء أو حِكْمِهِمْ وخطبهم في عصور الإبداع العربي المختلفة ، التي يعزّز فيها العربي شيمة الكرم ويرتقي بالشخصية العربية وقيمها ومآثرها الإنسانية من خلاله .

لقد قدّم الجاحظ هذا النموذج في الفخر والتسامي بالإنسان العربي في كتابه البخلاء ، تعزيزاً لرسالة فحواها أن هذا الإنسان هو جدير بالمكانة والرقى والحضارة والوعي الإنساني الشمولي وبالثقة المدركة لمتطلبات الواقع المعيش وبناء مستقبل أكثر لقا ، ليناقض بهذا ما كان يسعى الشعوبيون لتأكيد من قصور الإنسان العربي وعجزه ، فكرياً وثقافياً وحضارياً ، ممّا يعرقل تساميه وحصوله على مكانة تحت شمس الحضارة الآنية أو المستقبلية ، أو حتى عجزه – فيما كانوا يذهبون إليه – من الحصول على مكانة مرموقة اجتماعياً أو حتى الحصول على مناصب أو وظائف عليا في الدولة أو غير ذلك .

إنّ تعزيز العروبة في ثنايا كتاب البخلاء هو الفكرة السياسية المستهدفة من مفهوم الإسقاط السياسي الذي نعينه هنا ، وقد دُعِم الجاحظ فكرته هذه بالشواهد من مآثور الشعر العربي والنثر وفوق هذا وقبله من شواهد قرآنية – أيضاً - بشكل ملحوظ ، ونقف فيما يلي على بعض ممّا رواه بهذا الشأن ، ذلك كله في قالب من خفة ظلّ وروح صافية ، ودعابة خفيفة رائقة ، وسخرية خفيفة ، تُوصل الرسالة المستهدفة من أقصر الطرق عبارة ، وأعمق مضمونها دلالة .

في جزء بعنوان " قصّة أبي جعفر الطرسوسي " يقول بإيجاز موج :

" ولم أرَ مثلاً أبي جعفر الطرسوسي : زار قوماً فأكرمهم وطبّبهم ، وجعلوا في شاربهم وسبيلهم (٢٨) غالية ، فحكّته شفّته العليا ، فأدخل إصبعه من باطن الشفة ، مخافة أن تأخذ إصبعه من الغالية (٢٩) شيئاً إذا حكّها من فوق " (٣٠) .

وفي جزء عن أبي الشمقمق شاعر الكذبة الساخر ، يقول الجاحظ :

"وكان أبو الشمقمق يعيب في طعام جعفر بن أبي زهير ، وكان له ضيفان في ضيافة جعفر . وهو مع ذلك يقول :

رَأَيْتُ الْخُبْزَ عَزَّ لَدَيْكَ حَتَّى حَسِبْتُ الْخُبْزَ فِي جَوْ السُّحَابِ
وَمَا رَوْحُنَا لِيُثْبِتَ عَلَا وَلَكِنْ خِفْتُ مَرْزَنَةَ الثُّبَابِ

وقيل للجُمَاز : ما رأيُناكَ في دهلِيزِ فلان ، وبين يديكَ قصعة وأنت تأكلُ ، فمن أي شيء كانت القصعة ، وأي شيء كان فيها ؟ قال : قيءُ كلبٍ ، في قَحْفِ خنزير .

وقيل لرجلٍ من العرب : قد نزلت بجميع القبائل ، فكيف رأيت خُرَاعَةَ ؟ قال : جوعٌ وأحاديثٌ " (٣١) .

خلاصة وروية ذاتية

في خاتمة بحثي يمكن أن أقف على بعض النقاط ذات الصلة المباشرة بمفهوم الإسقاط ، بوجهيه النفسي والاجتماعي ، في جانب ، والسياسي في جانب آخر ، وهي تتعلق بمدى نجاح الجاحظ في إيصال الرسالة الدلالية التي أراد إيصالها للمتلقّي عبر قناة الإسقاط المشار إليها مسبقاً . ولعلّ من الصواب طرح تساؤل مهم ومباشر في هذا السياق عن مدى مصداقية الجاحظ في طرحه لمعلوماته التي تضمّنها الكتاب ، ذلك جانب ، ومدى نجاحه في تحقيق المستهدف من فكرة الإسقاط المنوّه بها من قبل ، وذلك جانب آخر .

من الجدير ذكره أنّ الجاحظ نوع من مصادر معلوماته ، وجاء الكتاب بذلك زائراً بكثير من المعلومات والأخبار والقصص والحكايات المتعدّدة ، وقد التزم الجاحظ الدقّة فيما رواه في كتابه ، من خلال النقل والتفصيل والطرح في آن واحد. في هذا الصدد يقول أحد الباحثين :

"ويبدو للباحث أن الجاحظ كان أكثر صدقاً مع واقعه ، ومع مجتمعه ، ومع التاريخ ، فدرن لنا المصادر التي اعتمد عليها ، ولم يتركها لاجتهاد الباحثين " (٣٢).

وقد نوه الجاحظ نفسه بمنهجه حول هذا الجانب -- تحديداً -- إذ يقول :

" وهذه ملتقطات أحاديث أصحابنا وأحاديثنا وما رأينا بعيوننا ، فأما أحاديث الأصمعي وأبي عبيدة وأبي الحسن ؛ فإني لم أجذ فيها ما يصلح لهذا الموضوع إلا ما قد كُتِبَ في هذا الكتاب ، وهي بضعة عشر حديثاً " (٣٣) .

في جانب آخر يمكننا أن نوكد على نجاح الجاحظ إلى حد بعيد في إيصال رسالته ذات البعد النفسي والاجتماعي والسياسي إلى المتلقي بطريقة سهلة ميسورة الإدراك ، وبلغة أكثر ميلاً إلى البساطة والسهولة من غير بعد عن عمق التعبير وفصاحته ، وإن كان ذلك منقولاً بخفة ظله ودعاباته الرقيقة ، ولعل ميل الجاحظ لنقل مضامين رسائله الفكرية والاجتماعية على واقع الحياة والناس ، إنما شكّل هذا معيار نجاحه الأول المشار إليه ، وقد تنبّه باحثون كثيرون إلى تحقيق رسالة الجاحظ لأهدافها من منطلق مصداقيته ودقته التي اعتمد فيها على واقع الحياة من حوله بالدرجة الأولى . حول هذا الجانب يقول د. شوقي ضيف :

" كان الجاحظ يريد أن يجعل الأدب صورة من الواقع ، وهو لذلك لا يستعين على كتابة بخلائه بالتاريخ أو ذاكرة الماضي ، إنما يستعين بمفكرة الحاضر ، والعصر الذي يعيش فيه ، وقد عرف كيف ينقله إلينا بجميع طبقاته وأفراده وملاحمهم وخصائصهم النفسية " (٣٤) .

كما تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن توفيق الجاحظ في إيصال رسالته بهذا الشكل المبدع كان عائداً في بعض أسبابه إلى عنصر السخرية ، الذي

تحدثنا عنه مسبقاً ، وقد استحوذ هذا العنصر وإجادة الجاحظ فيه على انتباه كثير من النقاد والباحثين واهتمامهم . يقول أحدهم بهذا الصدد :

" لو قُيِّدَ لهنري برجسون أو لهربرت سبنسر أو دوجا أو شايبورو - وهم كتاب هزليات وكوميديا روائيون ومسرحيون عالميون - ممن درّسوا الفكاهة والضحك قراءة كتاب " البخلاء " لوجدنا كتاباتهم عن الضحك أو المضحك تزخر باستشهادات منه " (٣٥) .

ولم تكن السخرية بعيدة عن دقة الطرح وشمولية النظرة ، وأوسع رقعة المعرفة والتصوير المفصل الدقيق لخفايا النفس البشرية ، تلك التي برع في نقلها الجاحظ بإتقان ، عبر قنوات قدرته على التناول المنطقي والمتوازن بين المعلومة والشخصية والفكرة المراد - ضمناً - نقلها وإيصالها للمتلقي ضمن إطار فكرة الإسقاط ذاتها ، سواء على الصعيد النفسي أو السياسي - على حد سواء . فيما له صلة بهذا الجانب يقول أحد الباحثين :

" ما أشبه قول ديكارت : لا نُصَدِّقُ إلا ما كان واضحاً ، يقول الجاحظ : لا تجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة " (٣٦) .

وهكذا كان الجاحظ أكثر استناداً لأدلة ما يطرحه ، والبرهنة على المعلومة ، وتوثيق كل حكاية ، ورصد معالم كل شخصية بصدق تصوير وأمانة طرح ، حتى بدت الرسالة الكامنة في إسقاطاته أقرب إلى إدراك المتلقي وفهمه .

الهوامش

- ١- الجاحظ معلم العقل والأدب . شفيق جبري . القاهرة . ط ١ ١٩٣٢ م .
ص ١٧ . تجليات الإبداع الأدبي . د. محمود علي عبد المعطي . دار
النشر الدولي . الرياض . ط ١ ٢٠٠٧ م ص ٢٨٩ .
- ٢- الجاحظ ، حياته وأثاره . د. طه الحاجري . دار المعارف . القاهرة . ط ٢
١٩٦٩ م . ص ١٧٦ .
- ٣- أبو عثمان الجاحظ . د. محمد عبد المنعم خفاجي . دار الكتاب اللبناني .
بيروت . ص ١١ - ص ١٢ .
- ٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر . المسعودي . الدار الأفريقية ط ٢
١٩٩٠ م . ج ٢ ص ٥٦٩ .
- ٥- الخالدون العرب . قدرى حافظ طوقان . دار العلم للملايين . بيروت .
ط ١ ١٩٥٤ م . ص ٤٨ .
- ٦- العصر العباسي الثاني . د. شوقي ضيف . دار المعارف . القاهرة .
ط ١٣ ٢٠٠٤ م . ص ٦١٠ .
- ٧- تجليات الإبداع الأدبي . د. محمود علي عبد المعطي . مرجع سابق .
ص ٢٩٤ .
- ٨- العصر العباسي الثاني . د. شوقي ضيف . مرجع سابق . ص ٥٩٣ .
- ٩- تجليات الإبداع الأدبي . د. محمود علي عبد المعطي . مرجع سابق .
ص ٢٩٦ .

- ١٠- دراسات في الأدب العربي . د. كاظم حطيط . دار الكتاب اللبناني ط١
١٩٧٧م . ص٥٦ و ص٥٧.
- ١١- البخلاء . الجاحظ . تحقيق أحمد العوامري وعلي الجارم . مطبعة دار
الكتب المصرية ط١ ١٩٣٩م . ج ١ . ص١٧ و ص١٨ .
- ١٢- البخلاء . الجاحظ . الشركة الجزائرية اللبنانية . الجزائر . ط١ ٢٠٠٦م
ص ٨ .
- ١٣- المرجع السابق . ص ٩ .
- ١٤- البخلاء . الجاحظ . تحقيق أحمد العوامري وعلي الجارم . مرجع سابق
ج ١ . ص ٤٦ .
- ١٥- صورة بخيل الجاحظ الفنية . أحمد بن محمد بن إمبريك . الدار
التونسية للنشر . ط١ ١٩٨٥م . ص ١٧٨ .
- ١٦- البخلاء . الجاحظ . الشركة الجزائرية اللبنانية . الجزائر . مرجع سابق
ص ٣٠ .
- ١٧- العصر العباسي الثاني . د. شوقي ضيف . مرجع سابق . ص ٦٠٨ .
- ١٨- البخلاء . الجاحظ . تحقيق أحمد العوامري وعلي الجارم . مرجع سابق
ج ١ ص ٥ .
- ١٩- تجليات الإبداع الأدبي . د. محمود علي عبد المعطي . مرجع سابق .
ص ٣١٢ .
- ٢٠- مروج الذهب . المسعودي . مرجع سابق . ج ٤ ص ١٠٩ .

- ٢١- معجم الأدباء . ياقوت الحموي . ج ١٦ ار صادر . بيروت . ص ٧٥ .
- ٢٢- العصر العبّاسي الثاني . د. شوقي ضيف . مرجع سابق . ص ٥٨٩ .
- ٢٣- الحيوان . الجاحظ . تحقيق عبد السلام محمد هارون . دار إحياء التراث العربي . بيروت . ج ٤ ص ٢٠٦ .
- ٢٤- العصر العبّاسي الثاني . د. شوقي ضيف . مرجع سابق . ص ٥٩٠ .
نقلًا عن البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . مكتبة الخانجي . القاهرة . ط ٥ ١٩٨٥ م . ج ٣ ص ٢٢٣ .
- ٢٥- المرجع السابق . ص ٥٩٦ .
- ٢٦- تجليات الإبداع الأدبي . د. محمود علي عبد المعطي . مرجع سابق . ص ٢٩٨ .
- ٢٧- الجاحظ ومجتمع عصره . جميل جبر . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ط ١ ١٩٥٨ م . ص ٣١ .
- ٢٨- السبلة : مقدم اللحية .
- ٢٩- الغالية : أخلاط من الطيب .
- ٣٠- أي : مَنْ خَلَقَ الله .
- ٣١- البخلاء . الجاحظ . الشركة الجزائرية اللبنانية . مرجع سابق . ص ٩٤ .
- ٣٢- تجليات الإبداع الأدبي . د. محمود علي عبد المعطي . مرجع سابق . ص ٣١٠ .

- ٣٣- البخلاء . الجاحظ . تحقيق أحمد العوامري وعلي الجارم . مرجع سابق . ج ٢ ص ٨٢ .
- ٣٤- الفن ومذاهبه في النثر العربي . د. شوقي ضيف . دار المعارف . القاهرة . ط ١٠ . ص ١٦٣ .
- ٣٥- مع بخلاء الجاحظ . فاروق سعد . دار الآفاق الجديدة . بيروت . ط ٤ . ١٩٨٣ م . ص ٩٧ .
- ٣٦- الجاحظ معلم العقل والأدب . شفيق جبري . القاهرة . ط ١ ١٩٣٢ م . ص ١٧ .